بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة صلاة الجمعة للشيخ الدكتور محمد شريف الصواف

**أَسْرَى بِعَبْدِهِ**

الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله الذي اصطفانا للإيمان، الحمد لله الذي خصنا بالإسلام، الحمد لله الذي جعلنا أمة القرآن، الحمد لله الذي جمعنا في بيت من بيوته، على طاعة من أحب الطاعات إليه، في ساعة من أحب الساعات إليه، نسأل الله تعالى أن نكون في ذلك كله من المقبولين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، خير نبي اجتباه وهدى ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد أيها الأحبة: نعيش في أيامنا هذه ذكرى لحدث عظيم من الأحداث التي ذكرها الله تعالى وخلدتها السنة المطهرة، إنه الإسراء والمعراج، تلك الرحلة الفريدة التي جعل الله لها مقاصد عظيمة، وجعلها الله تعالى مدرسة باقية خالدة، يستنهل منها المسلمون العبر، ويستمتعون تلك المقاصد العظيمة التي أرادها الله تعالى أن تبقى خالدة.

لقد ذكر الله تعالى الإسراء في آية، وذكر المعراج في آية أخرى، تثبيتاً وتأكيداً لهذه المعجزة، فقال الله تعالى وهو يحدثنا عن الإسراء: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير [الإسراء: 1] ، حدث عجيب بمقاييس الزمان والمكان، وبمقاييس قدرة الإنسان على الانتقال في المكان والزمان، ولذلك كان فاتحة هذا الكلام أن الله تعالى قال: سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ، إنها معجزة من المعجزات الكبرى، إنها حدث من الأحداث التي تستدعي مزيد التأمل والتفكر، ويحدثنا سبحانه عن المعراج فيقول: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى \* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى \* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى \* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى \* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى \* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى \* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى \* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى \* فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى \* مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [النجم: 1-11] ، مشهد عظيم، ذلك المشهد أسري به صلى الله وآله وسلم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، ثم عُرج به من بيت المقدس فاجتاز السموات، والتقى بالأنبياء، ثم كان ما كان من خطاب عظيم جليل بينه وبين الله سبحانه وتعالى، إنها رحلة تكريم ورحلة تشريف، إنها رحلة تذكير للنبي ولأمة النبي بشرف هذا النبي وعظيم منزلة هذا النبي .

ثبت الإسراء والمعراج من الآيات التي ذكرناها، وفي أحاديث كثيرة صحيحة، وجاءت أحاديث أخرى منها الصحيح ومنها الضعيف ومنها الموضوع، لتحدثنا عن بعض الصور التي شاهدها النبي في تلك الرحلة، إذاً أصل الرحلة ثابتٌ في الكتاب والسنة، ولكن المشاهد التي رويت وذكرت بعضها صحيحٌ ثابت وبعضها ضعيفٌ وبعضها موضوع.

اهتم المسلمون كثيراً بتفاصيل هذه المشاهد، لما روي من تلك الصور، ونسوا أو تغافلوا عن المقاصد الكبرى التي أرادها الله تعالى من هذه الرحلة، الإسراء والمعراج رسالة هامة موجهةٌ للنبي ، وهذا المقصد الأول، وهو رسالة هامة موجهة للأمة في عمومها، وهذا المقصد الثاني، وهي رسالة هامة موجهة للأمة في أفرادها، لكل فرد من الأفراد.

أما الرسالة التي يريد الله تعالى أن يوجهها للنبي فمفادها: يا محمد ، كلما تحققت في مقام العبودية كلما رأيت من ربك عناية مدهشة خاصة، كلما تحققت في مقام العبودية كلما أدركتك العناية بألحاظها على شكل مُدهش لا يخطر ببالك، تذكر يا محمد وتذكروا أيها المسلمون، ذلك اليوم الذي توفي فيه أبو طالب بعد أن توفيت خديجة، وعندها بلغ إيذاء قريش النبي أقصى ما يَملك، وأصاب النبي السوء، وأصابه ما يكره، حتى إن النبي قال: ما أصابني من أذى قريش شيء أكرهه حتى مات أبو طالب، في مشهد من تلك المشاهد خرج النبي يدعو قريشاً في محافلها، فجاء من جاء فاستهزأ به وشتمه وآذاه، ثم تعرض له أحد السفهاء فألقى التراب على رأسه إرغاماً وإذلالاً، عاد النبي والتراب على رأسه وثوبه، فجعلت إحدى بناته تمسح عنه الأذى والتراب وهي تبكي، فقال لها النبي وهو يذكر نفسه ويذكرها بالعبودية لله: لا تبك يا بنية، فإن الله مانعٌ أباك، لا تبكِ يا بنية، فإن الله هو الذي سينصر أباك، هذا تذكير بأن المظاهر والأسباب التي كانت تمنع وتؤيد النبي كحال خديجة رضي الله تعالى عنها وكحال أبي طالب، هذه أسباب، لا تركن إلى الأسباب، وإنما تذكر رب السماء، اعتمد وتوكل على رب هذه الأسباب، بذلك لما ذهبت تلك الأسباب تحققت عبودية النبي باعتماده على رب الأسباب.

ثم جاءت رحلة الطائف، فأوذي النبي فيها أشد الإيذاء ، وطُرد وشُتم ورُجم بالحجارة، وسالت الدماء منه، وإذ بالنبي وهو في حالة العبودية الكاملة يتوجه إلى ربه ولا يتوجه إلى سواه، وعندها جاءت الدعم والتأييد من رب العباد لسيد العباد وأعلى ما تحقق في مقام العبودية، وأنتم تعلمون أن الدعم النفسي وأن مواقف الإنسان تتوقف عليه، هذه شيء معروف في الحياة الدنيا وبين البشر، فكيف سيكون التأييد والدعم النفسي من رب العباد للنبي ؟ لقد كان على تلك الصورة المدهشة، ستمضي مكرماً، ستمضي معززاً، لتسير في هذه الرحلة الربانية التي منتهاها أنك ستلتقي برب العزة، منتهاها أنك ستكون في ذلك المقام الرفيع، في قاب قوسين أو أدنى، لا يوجد شيء ولا يوجد تعبير يمكن أن يعبر عن ذلك القرب وتلك المكانة العلية مثل هذا التعبير القرآني، قاب قوسين أو أدنى، هناك ستعلم أيها النبي العظيم يا محمد ستعلم ان هذه الدنيا بما فيها أشباح خيالات أوهام، وأن كل ما أصابك من أذى لا قيمة له، وأن كل الأعداء بما حشدوا بما خططوا بما كادوا، لا قدرة لهم على أن يصيبوك بشيء، لأنك ستخرج من هذه الأرض من هذه المدينة من هذه القرية، لترى كيف أن لله تعالى عوالم أخرى، وأن لله تعالى مملكة كبرى، وأن الله تعالى هو الذي يتصرف ويقدر الأمر في هذه المملكة لعظمى كيف يشاء، فما قيمة هذا الإنسان الذي يتعدى عليك، ما قيمة هذا الإنسان الذي يتجبر عليك، ما قيمة هذا الإنسان الذي نسي عبوديته لله تعالى وظن أن قادر على أن يفعل شيئاً، ما قيمته أمام هذه العوالم الكبرى التي ذكرها الله تعالى وكلها تسير بأمره؟ هذا هو اليقين هو الذي أراده الله تعالى عندما أسرى بنبيه ، في تلك المضاءات الكبرى، وتلك المشاهد العظمى، وتلك الآيات التي ما بعدها آيات.

إذاً سيعود النبي وهو أقوى، واليقين والطمأنينة في قلبه أعظم وأكبر، وستبتدأ مسيرة أخرى من الفتح والتأييد والعناية من الله سبحانه وتعالى.

أما الرسالة الأولى في الإسراء والمعراج إلى النبي أنت عبد الله، والله سبحانه لن يخذل عبده، والله سبحانه ضامن على أن ينصر عبده، ولكن الله تعالى يمتحن ثباتك فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُل [الأحقاف: 35] يمتحن ثباتك، ويمتحن موقف كل إنسان تجاه هذه الدعوة.

الرسالة الثانية: رسالة موجهة إلى الأمة بجموعها، يا أمة الإسلام أنت أمة مكرمة، كُرمت أولاً حينما كرم نبيك في هذا الرحلة العظمى، كُرَّمت حين جعل الله تعالى ميراث الأنبياء، وجعل الله تعالى رسالات الأنبياء وتعاليم الخير في رسالات الأنبياء جعلها مختصرة موجزة محفوظة في هذه الرسالة التي شُرَّفتِ بها، ومن دلالات ذلك أن النبي أسري به إلى بيت الأنبياء كلهم إلى بيت المقدس، أسري به وصلى إماماً بالأنبياء من أجل أن تفهم وأن تفهم الأمة أن هذه الرسالة الخاتمة هي رسالة الوراثة لخير الأنبياء كلهم، هي رسالة القيادة للإنسانية كلها بمختلف أطيافها.

الرسالة الثالثة التي نريد أن نفهمها من رحلة الإسراء والمعراج، هذه المعجزة العظيمة، هي الرسالة الموجهة إلى كل فرد منا، قدرة الله ليس لنا أحد، وإيمانك بالغيب وتصديقك لقدرة الله تعالى وإن لم تراها من أهم ما ينبغي أن تثبته عندما تقول أنا مؤمن، وها نحن في امتحان، أنت تسمع وترى ما يجري حولك من أحداث، من الناس من يتزلزل إيمانه، من الناس من يُشكك أو يدخل الشيطان إليه ليشككه بالله سبحانه وتعالى، رحلة الإسراء والمعراج تُريد أن تَقول لك: الله الذي له ملك السموات والأرض، الله قيوم كل هذه العوالم، وكل هذه المجرات والذرات، كان يرى ما جرى للنبي حين آذاه قومه، كان يرى ما جرى بالطائف، كان يرى استهزاء المشركين بالنبي ، ولكنه كان يَمتحن ثبات النبي ، وكان يَمتحن سلوك وفعل كل إنسان حول هذه الدعوة، والآن وغداً وإلى يوم القيامة القانون باقٍ، الله قادر على أن يُهلك الظالم، قادر على أن يَنتصر للمظلوم، قادرٌ على أن يغير كل المعادلات التي يرسمها الناس في الحياة الدنيا، ولكن الله تعالى يريد أن يمتحن في كل من المواقف، الله يمتحن الظالم ويمتحن المظلوم، الجميع في دائرة امتحان، والشاهد المراقب الذي يعلم حق العلم ويقين العلم هو الله سبحانه وتعالى، له أن يؤجل محكمته، وله أن يؤجل قراره، وله أن يُؤجل فعله، ولكن إياك أن تظن أنه غير قادر، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يُدير الكون كله، الكل بأمره وهو قيوم السموات والأرض، لكن امتحانك امتحان الإيمان واليقين والوقوف مع الحق، وإننا نقف أمام مشهدين:

المشهد الأول: لما عاد النبي من رحلة الإسراء والمعراج أراد النبي أن يخرج فيحدث أهل قريش بما شاهد وما رأى، فتمسكت به أم هانئ ابنة عمه، وقالت: لا تخرج، إنك إن قلت هذا سفهوك وكذبوك واستهزأوا بك، فخرج النبي ولم يعبأ بكلامها، فرأى أبا جهل، فقال له: يا أبا جهل، أعلمت أو أشعرت أنه قد أسري بي الليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج بي في سبع سموات؟ أبو جهل قال: أوحق هذا؟ صحيح جرى معك هذا؟ قال: نعم، قال: أرأيت إن دعوت لك قريش أتخبرهم بهذا؟ قال: نعم، رأى أبو جهل أنه أمام فرصة ذهبية الآن من أجل أن ينفض الناس كل الناس عن النبي ، فصاح أبو جهل ينادي: يا معشر بني فلان، يا معشر بني فلان، اجتمعت قريش، ما الخبر؟ إن محمداً يدعي أنه في هذه الليلة قد أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعُرج به إلى السماء، وأنتم تعلمون وأنتم تجار وأصحاب بضائع والقوافل أن رواحلنا تستغرق شهراً ذهاباً إلى الشام وشهراً رواحاً من الشام، فماذا رأيكم بهذا؟ وجعلوا يحاجّون النبي ، وهو يخبرهم عن دلائل صدقه، ويخبرهم بما يثبت صدقه ، من كان في قلبه شك ارتد، من لم يكن إيمانه على مستوى المحنة والفتنة ارتد، ومن كان إيمانه على مستوى المحنة واليقين بالله تعالى ازداد ثباتاً وازداد صموداً وازداد تصديقاً.

تعالوا نتفق على أن هناك درس واحد إذا هذا الدرس من الدروس الكبرى الكثيرة من الإسراء والمعراج فقد خرجت من هذه الذكرى بدرس عظيم وبفائدة كبرى، إنه موقف أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لما جاءه أهل قريش وهم يقولون له: يا أبا بكر، عجيب من العجائب، شيء لا يصدق، كل ما مضى بكفة وهذا الحدث الآن بكفة أخرى، كل ما مضى بميزان وبمناقشة والذي يدعيه محمد اليوم بكفة أخرى، يقول محمد أنه جرى معه هذا الذي جرى، ما قولك يا أبا بكر؟ أبو بكر الصديق مدرسة الإيمان الكبرى، مدرسة الاتباع الأعظم، الرجل الأكبر والأعظم في أصحاب النبي يقول كلمة ما فيها شيء من التردد، ما فيها شيء من التشديد، ولكن فيها العقل كل العقل، والإيمان كل الإيمان، والمنهج العلمي في التثبت، كل المنهج العلمي في التثبت، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن كان محمدٌ قد قال ذلك فقد صدق، أولاً إن ثبت لي إن قال ذلك سأتأكد أولاً، إن قال ذلك أنا أصدقه، إن قال ذلك لا أتردد في تصديقه، فأنا أصدقه بأعظم من هذا، أصدقه بخبر السماء يأتيه ويقول لي: أوحي إلي فأصدقه في نفس المجلس، يقول لي: أوحي إلي أصدقه، ما العجيب في هذا الأمر؟ من يستغرب ويستعجب هذا الأمر هو لا يَعرف قدرة الله ولا يؤمن بالله كما يجب أن يؤمن بالله سبحانه وتعالى، ولذلك كان أبو بكر رضي الله عنه الصديق الأكبر، وكان أبو بكر مدرسة الإيمان واليقين الذي نحتاج دائماً أن نتدبرها وأن نتعلم منها، حتى نصل إلى حالة تشبهها أو تقاربها.

أيها الإخوة الكرام: الإسراء والمعراج حدث معجر، وهو آية من آيات الله الكبرى، ولذلك عندما حدثنا رب العزة عن الإسراء قال: سُبحَانَ الذِي أَسرَى بِعَبدِه بدأ بالتسبيح فهو أمر عجيب، ولما حدثنا عن المعراج أقسم بآية من آياته الكبرى: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى وهي معجزة من المعجزات القرآنية، كل هذا كي نتدبر تلك الدروس، وكي نقف أمام تلك المقاصد، وكي نزداد إيماناً ويقيناً بأن الله سبحانه وتعالى قيوم السموات والأرض، وله الأمر من قبل ومن بعد، لا يعجزه شيء، ولكن الله تعالى له حكم يريد أن يمضيها، وهو في كل موقف سبحانه وتعالى يمتحننا، فاعلم أنك أمام كل كلمة وكل موقف ممتحن، وأن الله تعالى ناظر إليك، وأن الله تعالى شاهد عليك، وأن من أهم ما ينبغي أن لا يغيب عن قلبك يقينك بالله وإيمانك وتسليمك بكل ما جاء عن الله تعالى وعن النبي ، نتحدث في الجمعة القادمة عن بعض مشاهد عن الإسراء والمعراج نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عباده الموقنين المصدقين، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فيا فوز المستغفرين استغفروا الله .

بتصرف